الموت مع الزيتون

قصة بقلم أحمد سويد

امسكته من يده وشددته :

ـ لا تخرج يا جدي ... بالله عليك لا تخرج .

فحدجني بنظرة يمتزج فيها الغضب بالعتب :

ـ أتراني اخاف من غربانهم التي تسلح هناك ؟

ثم قفز ، كابن عشرين ، الى معوله ورفشه وخرج .

* * *

كنا صبيحة ذلك اليوم نتوقع الغارة ، فلقد كانت الساعة لا تتجاوز التاسعة عندما أقبلت « ام كامل » من وراء التلال الجنوبية ، وراحت كعادتها تدور بطيئة حول القرية ، تحدق في الازقة ، وتتبختر فوق الكروم ، وتنساب فوق الوديان ، ويحلو لها ان تمازح الشمس ، فتكشف لها عن بطنها تارة ، فيبدو ارقط كبطن الحية ، وتارة اخرى تواجه قرصها الملتهب بجناحيها الداكنتين ثم تستوي ، وتستمر في الدوران ، ونكاد احيانا نجمد في الجو ، اذا ما لاح لها شبح على الارض ، حتى ولو كان شبح دجاجة تسرح في حوش الجيران .

... وما كادت « ام كامل » تغيب وراء التلال الجنوبية ، بعدما استكملت جولتها الاستطلاعية ، حتى تجمهر اهل القرية عند ابواب الملاجىء ، فلقد صاروا يدركون بالممارسة ان طائرة الاستطلاع العجوز لن تلبث ان ترسل اليهم أسرابا من القاذفات الشرسة التي لا ترحم .

ولم يطل انتظارنا ... فها هي القاذفات تقبل كقطعان الذئاب الجائعة .

وبدأت الحمم تتساقط حول القرية .

وسحبت جدي من يده ، وجررته الى الملجأ .

كانت عيناه ترسلان الشرر ، وشارباه الابيضان الكثيفان يرقصان من الغيظ والانفعال ، وكانت اللعنات تتدحرج على لسانه بقرقعة كقرقعة الصخور وهي تتدحرج من اعالي الجبل .

... لم يكن يلعن اليهود ... فهو يقول انهم لا يستحقون اللعنة ، بل الذين يستحقونها هم العرب ... العرب الجبناء الذين اوصلونا الى هذا الدرك من الذل .

ـ تفوه عليهم ... مئة مليون جبان لا يعرفون الخجل ... كل يوم تصفعهم اسرائيل ، فيتعالى صراخهم واستنجادهم ، ويتراكضون الى الاختباء وراء ضعفهم كالفئران .

ـ ولكن اسرائيل ليست هي التي تصفعهم يا جدي !

ـ انا فلاح لا افهم في الفلسفة ... ولكني اعرف جيدا ان الهرة تتحول الى نمر كاسر حين تجد نفسها في موقع الدفاع عن النفس ايا كان المهاجم .

وسكت . وسحب هو سحبة من غليونه ، ومسح بكمه عرق جبينه المتصبب ، ثم توجه الى باب الملجأ .

... كانت القاذفات الاسرائيلية تغير على شكل امواج يعقب بعضها بعضا .

وكانت الانفجارات تزلزل الارض ويجرف دويها آذاننا واعصابنا .

وكانت ذرات التراب ترتج تحت اقدامنا ، وترتج معها عظامنا .

وكان جدي يراقب ما يجري بذهول .

نار النابالم تلتهم امام عينيه كروم الزيتون والتين وغابات الصنوبر .

وشجرة السنديان المعمرة التي تستريح القرون العتيقة في شخاريبها ، والتي احاطها الفلاحون ، لطول ما عمرت ، بهالة من التقديس الوثني ، هذه الشجرة كان يرى فروعها السامقة تتجندل واحدا في اثر واحد ، فتبدو كجبار دهمته قوة اعتى من قوته ، فراحت تعريه من جلاله وقدرته وجبروته .

والمنطقة التي اقام فيها الفدائيون قاعدة وهمية للتضليل كانت صخورها تنطحن وتتناثر غبارا يمتزج في الفضاء بغيوم الدخان وأعمدة التراب .

وخيل لجدي ان العدو يستهدف كل ما يرمز الى الحياة فوق ارضنا ، وتذكر ان حياتنا من قبل كانت رخية هينة ، مواسمنا خيرة وحقولنا سخية لا تتنكر لنا حتى في ايام الجدب ... وكان الخوف لا يدخل اكواخنا ، واذا دخلها كان كعابر السبيل يطلب جرعة ماء ثم لا يلبث ان يحمل عصاه ويرحل ... ولكن الايام تغيرت كثيرا ، واضطربت دورة الحياة في قريتنا . تشقلب كل شيء . تزعزعت كل الثوابت . صار الرعب خبزنا اليومي . صارت القنابل هدية العدو يرشقنا بها كل صباح وكل مساء ... هكذا بكل بساطة ، ودونما مبرر ، صار الرصاص مطرا ينهمر فوق حقولنا فيستنبتها القحط والجحود والخواء ... صار الموت يتخطف احبابنا ، ويجنيهم في غير مواسم القطاف ... صارت الطمأنينة تهرب من بيننا لتفتش عن ملاذ فلا تجده حتى في دهاليز الملاجىء .

وبصق جدي :

ـ تفوه على العرب ، قال مئة مليون قال ... وتستمر الغارة اكثر من ساعة ولا يعكر مزاج المغيرين طلقة بارودة ؟

لا تلوموا جدي فهو لا يعرف الخطط الحربية ، لا يعرف ان هذه الخطط تقول بأن لكل تحرك توقيتا ... وكل ما يعرفه ان القصف ما يزال مستمرا وان طائرات العدو تروح وتجيء بسلام كأنها تقوم بنزهة ممتعة للترويح عن النفس .

... وكان جدي كلما انقضت الطائرات على اهدافها فكادت تلامس الارض ، ينقض بدوره على حصى الطريق ، محاولا ان يرشق به العاهرات المغيرة ... ولكني أشده من ذيل شرواله :

ـ تعقل يا جدي .

فيدرك ان حركاته صبيانية ... ولكنه يستشعر انه يكاد يتفجر من الضيق .

وبعد قليل هدأ جدي . زال الانفعال الذي كان يرقصه كعود القصب اليابس . وبهدوء انسل من الملجأ متوجها نحو البيت .

وكابن عشرين ، قفز الى الاسطبل ، فتناول رفشه ومعوله ، وحزمة من اغراس الزيتون التي كان قد اشتراها بالامس ليغرسها في الدوارة .

وصحت به :

ـ ارجع يا جدي .

فتلفت نحوي بمرارة مطعمة بشيء من السخرية :

ـ أتراني اخاف من غربانهم التي تسلح هناك ؟

واندفع يعدو .

ومن باب الملجأ كنت اراه وهو يبتعد . زناره الحريري يلمع تحت وهج الشمس المقطبة ، ولبادته السمراء تزداد دكنة كلما ابتعد ، وذيل شرواله يتموج وراءه كالية خروف كهل ، ومعوله ورفشه يرنوان نحوي وهما فوق كتفه ، بشيء من الانذهال والدهشة .

... وها هو في الدوارة يضرب الارض بمعوله ، ويرنو بعد كل ضربة الى الطائرات فوقه كأنه يتحداها .

... وحفر الحفرة الاولى ، وأنزل فيها الغرسة الاولى . طمرها بالتراب ، ثم سواه حول جذعها النحيل ، ودغدغ بانامله القاسية وريقاتها الخضراء المرتعشة ، ومال عنها بضع خطوات ، وراح يحفر من جديد .

ومن باب الملجأ رأيته يهوي فجأة الى الحفرة .

وهرعت اليه ، فوجدته يعانق غرسة الزيتون ممزق الصدر ، وعيناه على الغرسة الخضراء التي زرع ، وجبينه مصفرّ نحو الشمس .

أحمد سويد

بيروت